التجريب في قصيدة النثر المفهوم والمصطلح

الأستاذ الدكتور
حسن دخيل الطائي
الباحث
رفعت اسوادي عبد
جامعة بابل - كلية التربية للعلوم الإنسانية

Experimentation in Prose Poem The Concept and The Idiom

Dr. Hassan Dikheel Al- Ta'i
University of Babylon- College of Education for Human Sciences ,Arabic Depart
Reseacher : Rafat Swadi Abid
University of Babylon- College of Education for Human Sciences
Arabic Depart

الملخّص :

إن التجريب عملية فنية فكرية إبداعية خلاقة تحقق معرفة أرقى، متجددة غالباً ما تحمل صفات المغامرة الإنسانية وخصائصها، والقدرة على فض المجهول واستيعاب الجديد، وجعل من قصيدة النثر العراقية شعلة إبداعية تساهم في خلق تجربة خلاقة تفيد المجتمع، وتتفاعل مع الحياة اليومية.

ويتسم التجريب بالمقصدية، للولوج إلى عالم جديد حداثوي يتعصرن مع استمرار الحياة، ولا يستطيع أن يخوض مضماره الهاوي أو المبتدئ ؛ أو المتشعرن، إلا من احكمته الخبرة وهذبته الموهبة الشعرية التي تمتد لسنين طويلة، وارتشف من منابع الطبع منذ نعومة أظفاره بعيداً عن التصنع.

ويتأطر ويضع قوانينه يوماً بعد الآخر، ويرتقي لينظم نفسه، محاولاً الخروج عن النموذج الثابت متجاوزاً الأعمال التقليدية، ويبحث عن سبل الانفتاح، وقد ينسلخ في بعض الأحيان عن كل موروث أدبي، كما تجلت عوامله في قصيدة النثر العراقية بعد عام ٢٠٠٣م.

الكلمات الافتتاحية: تجريب، نثر، قصيدة، تجربة، نوع، مفهوم، مصطلح، نقد، حديث، إبداع.

Abstract:

Experimentation is a creative , intellectual artistic process that can achieve higher knowledge . It is really renewable and carries human characteristics adventure . It has the ability to go behind the unknown so as to comprehend its borders and its modernity . Experimentation made the Iraqi prose poem like a flame of creativity that helps to create a creative experience that the society benefits from and it reacts with everyday life. Experimentation is described as an intended action , it has a purpose so as to go inside a new and modern world which matches with life continuity. Critics who are beginners or armature cannot , of course, deal with Experimentation. Poets who have no wide experience and ability in writing cannot make use of it , as well. It demands a great long talent in poetry writing it , artificial or poser poets fail in this side . So only great poets can rule experimentation rules day after day. It demands a self disciplined poet who tries to break the static traditional patterns . A poet who seeks to be universal and goes back the literary and poetic heritage and we can clearly find this in the Iraqi prose poem written after 2003.

Key Words : Experimentation , prose , poem , experience , type , sort , concept , idiom , criticism , modern , creativity .

توطئة:

إن عملية الكتابة الإبداعية العراقية، ولاسيما قصيدة النثر، تمخضت عن الإحساس الجمعي بعدم ثبوت الهوية، وذلك قد جاء نتيجة لتهافت الحوادث بعد أن أصبح مفهوم الواقعية ذاته موضعاً للتساؤل، ولعل من أسباب ذلك في العراق، تأثره بالمحيط العربي في الستينيات الذي كان يعيش أزمة في الحوادث التي شهدت فشل أنموذج الاشتراكية أو التطبيق للاشتراكية وصعود النزعة الدكتاتورية إلى السلطة واستلاب إنسانية الإنسان في العراق عبر الأنظمة الدكتاتورية، وصعوبة الحياة اليومية ؛ وهنا نشير إلى استمرار هذا الحال على ما كانت عليه من سوء حتى سقوط بغداد عام ٢٠٠٣، مما أدى إلى فقدان المثقف العراقي، والشاعر منه بصفة خاصة ثقته بأنظمته السياسية، وواقعه الذي ظل فيه ملتزماً بالقيام بوظيفته التعبيرية والتصويرية والنقدية، في محاولة منه للوصول إلى انطباع نهائي يشير إلى حقيقة أو حالة إنسانية عامة أكبر كثيراً من الواقع، هي محاولة الإنسان (أو الجماعة) تحقيق الذات والاصطدام بعوامل القهر من خلال الالتزام بخلفية اجتماعية محددة يستعملها إطاراً للصراع والاحتفاظ بالتتابع الشعري القائم على السببية والتطور المنطقي للزمن فتحول إلى الانكفاء والتدميرية، وانطوى على أفكاره المضطربة ثائراً على المرجعيات التي شكلت وعيه السابق، وقد لجأ شعراء هذه المرحلة موضوع البحث، بعد سقوط الحكومة السابقة عام ٢٠٠٣، إلى التعبير عن قضاياهم الأساسية التي تتجلى بشكل خاص في الرفض السياسي لكل أشكال القمع والظلم وغياب الحرية في العراق، في تلك الحقبة فضلاً عن التعبير عن الواقع الجديد ومعطياته العامة.

وقد انتقل الالتزام بذلك من الالتزام الخارجي إلى الالتزام الداخلي الذي يمس المثقف في حياته اليومية فألغى الخلفية الواقعية المحددة بإطار اجتماعي معين أو حالة من حالات القهر الاجتماعي أو السياسي ووصل بالحدث إلى آفاق اشمل بكثير من حدود الإطار الاجتماعي، آفاق تشمل أزمة الإنسان بشكل عام ليصبح الحدث تحولاً إلى تفاصيل الواقع عنده متضمناً كُلّ الانطباعات في وعي الشخصية لتكون في جزئياتها المتناثرة خبرة إنسانية عامة، ومن ثم فإن تقنيات قصيدة النثر تعتمد على تصوير الواقع كما ينطبع في وعي الشخصية وليس تصوير الواقع كما هو.

وبخصوص المصطلح –التجريب– لم نجده يحظى بعناية أصحاب المعجمات الاصطلاحية، كما وجدنا أن الاهتمام به في البحوث العلمية والأكاديمية، من القلة إلى درجة عدم كفايتها خصوصاً في دراسة الشعر، وهو يُعَدُّ من المصطلحات النقدية الحديثة، التي تحتاج إلى استكشاف ومعاينة وتفحيص، لما له من شمولية في الأعمال الأدبية الحديثة، ولاسيما في قصيدة النثر، فقد جاء تعريفه في اللغة والاصطلاح على وفق الآتي:

التجريب في اللغة: مما لا خلاف فيه أن اللغويين قد اعتنوا بتعريفات أغلب مفردات اللغة وكانت تعريفاتهم لأجل حفظ اللغة والحرص على أصالتها وبيان حسن النطق بها ومعرفة أصول كل مفردة من مفرداتها ومعرفة اشتقاقاتها، ولعلهم تناولوا في هذه التعريفات كل صغيرة وكبيرة من مفردات اللغة العربية الواسعة ومما لاشك فيه أن تعريف كلمة (تجريب) كان واحداً من تلك الاعتناءات، وإذا تصفحنا معجمات اللغة نجد أن لفظة (تجريب) أخذت حيزاً كافياً في تلك المعجمات فقد جاءت عند ابن منظور: ((ومُجَرِّبٌ: قد عَرفَ الأُمورَ وجَرَّبها ؛ فهو بالفتح، مُضَرَّس قد جَرَّبْته الأُمورُ وأَحْكَمَتْه، والمُجَرَّبُ، مثل المُجَرَّس والمُضَرَّسُ، الذي قد جَرَّسَتْه الأُمور وأَحكمته، فإن كسرت الراءَ جعلته فاعلاً، إلا أَن العرب تكلمت به بالفتح))[1].

وعند الفيروز آبادي، جربه تجربة: ((اختبره، ورجل مجرب، كمعظم، ومجرب عرف الأمور، ودراهم مجربة موزونة))[2].

التجريب في الاصطلاح: إن مفهوم التجريب الذي يحمل في طياته كثيراً من الأنساق الثقافية المكتنزة التي تتموضع في التسمية وإحالاتها على الفنون المعرفية التجريبية كافة، يأخذ مقاميته من كونه مشحوناً بالإبداع وفي طياته مرجعيات فنية تتجلى حين نتعرف على مكنوناته.

يرى مجدي وهبه أن التجريب هو: ((المعرفة أو المهارة أو الخبرة التي يستخلصها الإنسان من مشاركته في أحداث الحياة أو ملاحظته لها ملاحظة مباشرة))[3].

ئبنا تأمل الطرح اللغوي السابق إلى الإقرار بأن التجريب عملية تتأسس على المعرفة والقدرة على القياس والاختبار، تصدر عن ذات مُجرِّبة واعية بما تفعل ومقبلة عليه حتى تمتلك الخبرة والدراية بالأمور المجرَّبة أي أنها عملية إخضاع الشيء أو الظاهرة

للتجربة ومتابعتها من أجل دراستها وتقنينها، والتجربة ، في العلم ، اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يراد ملاحظتها ملاحظة علمية دقيقة ومنهجية للكشف عن نتيجة ما، أو تحقيق غرض معين، وهي أيضا المعرفة أو المهارة أو الخبرة التي يستخلصها الإنسان من مشاركته في أحداث الحياة أو ملاحظته لها ملاحظة مباشرة[٤].

ومن خلال التعريفات المؤطرة بين أصحاب المعجمات اللغوية والاصطلاحية، يتبين للباحث أنهم لم يختلفوا في تعريف التجريب، وإن استطالوا في شروحهم فإن المقصدية واحدة.

مفهوم التجريب:

لقد شهد القرن العشرون من الانعطافات والمسارات الفكرية، التي تحددت ملامحها في الانتقال من الحداثة إلى مرحلة ما بعد الحداثة التي امتدت توجهاتها إلى مطلع القرن الحادي والعشرين وما رافق ذلك من ظهور مدارس وتوجهات فكرية حداثوية كان لها تطبيقاتها على صعيد الأدب والفنون والسياسة والفلسفة، فمن تلك التأثيرات ظهور التجريب وشيوعه بين الباحثين المختصين وغير المختصين، فضلاً عن ما يحتويه هذا المفهوم من تنوع في الأساليب الفنية والأدوات الإجرائية، ونضج فكري وبعد ايدلوجي، وإذا تجاوزنا الحدَّ الأدنى من الدلالة اللغوية والاصطلاحية للتجريب يتبين لنا، أنه مفهوم أكثر منه مصطلحاً ؛ وأنه ليس تقنية بقدر ما هو تعبير عن مواقف أو رؤى فلسفية وجودية وجمالية وتاريخية تحكم مجمل العملية الإبداعية والتجريب موجود في الحقب الزمانية كافة، مما جعل العلوم تنهض بالتدريج، ولكن في وقتنا أصبح ضرورة للانتقال السريع إلى ما بعد الحداثة.

تَكَوَّنَ مفهوم التجريب في نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، وارتبط اسمه بمفهوم الحداثة وظهر على الأخص بالرَّسم، والنحت، بعد أن تلاشت آخر المدارس الجمالية التي تفرض قواعد ثابتة، وبعد أن تأثرتْ الحركة الفنية بالتطور التقني الهائل في القرن العشرين، وشهدت نوعا من البحث التجريبي في الاتجاهات كافة[٥].

ولا يوجد مفهوم علمي دقيق وصارم ومحدد لمعنى التجريب، ذلك أن التجريب ثورة على التقنية القديمة التي تُعدُّ من الماضي، وهو خروج على كل قاعدة، ويحتوي طرقاً ومناهج مختلفة ومتعددة[٦].

فالتجريب هو العثور على أدوات ووسائل لم تستعمل من قبل، وكذلك ابتكار عالم من القيم الجديدة، وهو ضرورة لكلّ نشاط إنساني، ومن ثم فإن جميع أشكال الابتكار ضرورية، وهذا ما يجعل التجريب عنصراً حياً، ويعني هذا أنّه بأسلوبه الفني، إنما يقوم بإسقاط رؤية عالمنا المعاصر وردود أفعاله، بثراء خبرته وفكره ومعارفه، وانجازاته ومخاطره، فضلاً عن ذلك على التجريب أن يكون فاعلاً يقوم بكامل وعيه ومسؤوليته بمخاطرة الإرهاص والتنبؤ، والتجريب الحقيقي ما هو إلا تزايد صيغ الابتكار والتجديد[٧]، وهذا ما تعمل عليه التجربة الأدبية، لذلك لا يمكن التعرف على حداثة النصوص لولا تجريبيتها[٨].

فعملية الخلق واختراع أشكال جديدة قادرة على ديمومة الحياة وتجددها، لا تتحقق إلا في التجريب الذي يدفع بدوره عجلة التقدم نحو الأمام مما خلق رغبة في التطوير والتحديث والبحث عن السبل التي من شأنها القضاء على الجمود والتحجر ؛ لذلك يمكن أن نَعُدَّ لحظة التجريب هي لحظة الميلاد، لحظة البدايات الناجحة لمجتمع يرغب في أن يتحرر من قيوده ويخطو خطوات جادة نحو التغيير[٩].

لقد حدد (كلود برنار) مقاييس معينة تضبط مفهوم التجريب، بقوله: ((المُجرِّب كُلّ من استخدم أساليب البحث بسيطة كانت أم مركبة لتنوع الظواهر الطبيعية أو تعديلها لغرض ما، ثم إظهارها بعد ذلك في ظروف أو أحوال لم تكن مصاحبة [لها] في حالتها الطبيعية))[١٠].

وهذا يعني أن التجريب يقتضي فعل التجاوز بالإضافة أو التعديل، الأمر الذي سيؤدي حتما إلى التغيير على عكس الملاحظة التي تكتفي بالوصف التقريري المباشر للظاهر دون أدنى تعديل أو إضافة، ويجسد هذا الطرح مفهوم التجريب العلمي القائم على ((فكرة صدور المعرفة من ينبوع التجربة))[١١]، فهي منبع المعارف التي تنشأ من الملاحظة وذلك باستعمال الحواس ؛ وهي نشاط فكري، إذ لا وجود للتجريب من دون أعمال الفكر كما يجسد فضلاً عن ذلك جوهر المنهج التجريبي في العلوم وفي الفنون على حد سواء[١٢].

الفرق بين التجربة والتجريب:

١-التجربة:

إن عملية الإبداع التي يقوم بها كاتب ما في تجربة قصصية، أو شعرية، أو مسرحية، أو نقدية، تعني أنه يقوم بمحاولة فنية في أحد هذه الأنواع الأدبية ؛ بمعنى أن هذا الكاتب يقوم بتجربة فنية ما يرمي من خلالها إلى بلوغ النجاح الفني المنشود، ولكن الحقيقة المتخفية وراء هذا الانجاز في مفهوم التجربة والمستتر في معنى المحاولة، يشير إلى أن الكاتب يعتمد في سعيه الفني على مجموعة من الآليات الفكرية التي يمكن إيجازها بما يأتي:

أ-قواعد جمالية مضبوطة في أحد الأنواع الأدبية المعروفة فيكون هذا السعي مرتكزاً على عمل فني سبقه ؛ يُعد بمثابة النموذج أو المثال أو المنوال الذي يجب أن ينسج عليه هذا الكاتب تجربته الفنية.

ب-تأثير عملية النقد الخارجي والذاتي عند المبدع، ففي ذهن الناقد عملية مقارنة لا محيد عنها، فمن يطالع أثرا ما يقول أنه من قبيل التجربة أي أنه يقارن الذي بين يديه بما يتصوره من الأعمال الفنية المثلى، ويكون حكمه أو تقييمه ناتجاً عن تلك المقارنة، ومعتمداً عليها.

ت-إنه سجين تقليد ما سبق من الأعمال التي تنعت بالمثلى، وانه يدخل في تيار أدبي معروف، وأن يحترم ذلك الاتجاه الفني الذي قلده.

ث-اطلاق وصف التجريب على أعمال الشبان بشكل تعميمي ففي اغلب الحالات، يقول الناس أو بالأحرى الأوصياء على الأدب أن الشاب الفلاني يقوم بتجربة شعرية، وذلك في لهجة استنقاص وبعض الازدراء المبيت.

ج-إن التجربة الفنية قد تعكس تواضعاً زائفاً ! ذلك أن القارئ قد يكون مجبراً على مطالعة هذه التجربة الفنية (باطمئنان)، لكن إذا احتج ولم يقبل قيمة هذه التجربة (كما في المنتديات والمجالس الأدبية) فان أصحاب المجلس يسخفون المحتج بحجة أن الملقي قد استعار أدواته الفنية من المتنبي أو بلزاك، ومن أنت حتى تقيم هؤلاء الأدباء[١٣].

وذلك يفضي إلى استنتاج مفاده، أن اعادة تكرار التجربة الأدبية، أو العمل على غرارها، والتأثر بها وإصدار احكام نقدية على وفقها، ما هي إلا غنوصة واستقالة للعقل والبحث عن السهل المكرر في سبيل اكتساب منافع سواء كانت آنية أو مؤقتة، ذلك فضلاً عن القول إن على الأديب أو الناقد أن يجد السبل الناجعة وابتكار ما هو إبداعي بناء، يتمظهر بأعمال أدبية ذات مغزى تليق بما هو متجسد في كلمة أدب.

٢-التجريب:

إن الفرق شاسع بين التجربة الفنية والعمل التجريبي ؛ الذي هو عمل إبداعي خلاق بالمطلق، ويتفق معظم النقاد على أن التجريب هو قرين الإبداع ؛ وشبيه الاختبار بالعمل المختبري، ورغبة في التحديث، والتحرر من القيود ويخطو خطوات جادة نحو التغيير ومواكبة العصر الحديث.

بيد أن التجريب في الأدب لم يولد من فراغ فكري أو نتيجة ظرف منقطع في النتاج المعرفي، وإنما كانت هناك سلسلة من التحولات المعرفية انعكست على الساحتين الفنية والأدبية، فرافق ذلك التحول تغيير في مضمون الكتابة وتشكيلاتها، وقد أثار مصطلح التجريب النقاد والكتاب والمحدثين في الثقافة الغربية، فكان التجريب اللفظي من الخصائص التي ميزت الأفكار والمشاعر التي أثرت في الثقافة بصورة عامة في العقود الأولى من القرن العشرين، فكل أشكال التعبير أصبحت تحت الاختبار وأضحت علاقة اللغة بالمنطق والواقعية فكرة اساسية في الدراسات التي تراوحت بين الفلسفة والانثروبولوجيا[١٤]، لذا يتمثل التجريب في مجموعة من الثوابت أهمها:

١- ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة.
٢- تجاوز المألوف والمغامرة في قلب المستقبل مما يتطلب الشجاعة والمغامرة.
٣- استهداف المجهول دون التحقق من النجاح.
٤- الفن التجريبي يخترق مساره ضد التيارات السائدة بصعوبة شديدة.
٥- نادراً ما يظفر الفن التجريبي بقبول المتلقين دفعة واحدة، بل يمتد إلى أوساطهم بتوجس، ويستثير خيالهم ورغبتهم في التجديد.
٦- جدل التجريب الإبداعي متعدد الأطراف، لا يجري داخل المبدع في عالمه الخاص، بل يمتد إلى التقاليد التي يتجاوزها، والفضاء الذي يستشرفه المخيال الجماعي.

٧-زوال الحدود بين الأجناس الأدبية إذ نجد تداخلاً واضحاً بين القصة القصيرة والشعر والمسرح والأسطورة، حيث يستطيع الناقد من خلال دراسته للشعر أن يستخلص ظواهر نقدية تنطبق على القصة أو المسرح، والعكس صحيح أيضاً[١٥].

جسدت الفترة الممتدة من أواسط الستينيات حتى نهاية الثمانينيات، التي شهدت تنوعاً كبيراً في النتاج الأدبي، واندفاعاً نحو التجريب، ثورة في مختلف الأساليب الفنية والأشكال والمضامين سواء في الشعر أم الرواية، ونتيجة لذلك فقد حُكم على الكثير من الأعمال الأدبية الجديدة، بما يشبه الانفصال عن الجمهور، ذلك أن الغرابة والإغراق في الرمز، والتحطم الحاسم والتلاعب بالأزمنة، وتداخل الأحداث، وكسر الحدود بين الواقع والحلم، والراهن والذاكرة، ودخول كثير من القصص إلى عالم الشعر والرؤيا والأسطورة، وهذا فاجأ القارئ وخلق حاجزاً بينه وبين الكثير من الأعمال الأدبية[١٦].

وما يمكن أن ندفع به ذلك الحاجز هو القول بأن التجريب لا يعني مجرد اغتراب أو غموض أو التعمية أو الخروج عن المألوف لغرض لفت الأنظار، بل هو مادة قابلة للحركة للوصول إلى كل ما هو جديد ؛ فاعلية مستمرة وصيرورة دائمة للبحث عن كُلٍّ تواصل جديد ؛ وهو حركة تسعى إلى استثمار العديد من الامكانيات ومساحات لم تكشف[١٧].

توجد هناك علاقة بين التجريب بما هو اختيار مستمر للكتابة، وبحث دائب عن صياغة متجددة للإبداع تشمل أشكال التعبير وقضايا التفكير وبين ما يتعلق بنمط العلاقة بين المبدع والمتلقي، وإذا تم ذلك يحق لنا أن نسميه تجريباً لأنه نابع عن رؤيا تجاوزية خلاقة، ولا يمكن أن يكون قفزةً خارج المفهوم السائد أو ابتكاراً خلاقاً من عدمه، إنه جزء من حركة ترسم أفقها كلما تكثف مداها وتأصلت جذورها في تربة المعرفة والتجربة، مسنودة إلى موهبة صريحة ورؤية فصيحة للنص والعالم[١٨] ؛ ويرى خالد الغريبي بقوله: ((ليس كل تجريب فعل تجاوز بالضرورة فقد يكون التجريب قفزة في المجهول دون تحقق التجاوز المأمول في حركة الإبداع))[١٩].

وَعدَّ أدونيس التجاوز من شروط التجريب وإذا انتفى عنه ذلك الوصف فلا يحق لنا أن نسميه تجريبا، ويخصص بقوله: ((التجريبية لا تنهض وفقاً لما هو راهن، وإنما تنهض كتجاوز له، من أجل الكشف عن بديل أشمل وأعمق وأغنى))[٢٠].

وتقول زهيرة بولفوس: إن التجريب لا يمكن أن يكون قفزة خارج المفاهيم السائدة، أو ابتكاراً خلاقاً من عدم ؛ إنه جزء من حركة ترسم أفقها كُلَّما تكثف مداها وتأصلتْ جذورها في تربة المعرفة والتجربة مسنودة إلى تجربة صريحة، ورؤية فصيحة للنص والعالم[٢١].

وقد سُمِّيَ التجريب بأدب التجاوز، فهو ليس مغامرة تنطلق من الصفر لتنتهي إلى الصفر، ولكنه منهج جديد ورؤية واضحة في بلورة الخاص والعام والذاتي والجماعي، فأدب التجاوز هو رؤيا متكاملة لا تستند إلى خلفية واحدة، ولا تستقي مادتها من الواقع المرصود فقط، أو من الواقع المتوقع فقط، وإنما عنصر التكامل ضروري ؛ أي أنه عملية مقصودة ومدروسة مرتبطة بهدف معين وليس فعلاً اعتباطياً، وعليه لا يمكن الحديث عن التجريب دون توفر الوعي والمقصدية والاحترافية، وهي شروط العمل التجريبي[٢٢].

تقنيات التجريب التي نجمتْ عنها قصيدة النثر:

تنوعت الأغراض الفنية لقصيدة النثر العراقية، وتعددت أشكالها، وأطرت مع مضمون النص الذي أكتنز في داخله اللغة الأدبية المكثفة متحاوراً مع الاستشراق والازمنية، وبالخط الزمني الممتد، وبين رصانة النص وتماسكه، وتهيئة القارئ ليعيد إنتاجه بأدوات مخزونه الثقافي والمعرفي، وبأدوات وعيه النقدي، وبين إعادة بناء رؤية مستقبلية جديدة بما يتفق والغرض الذي يريده هذا الشاعر أو ذاك، وكذلك الاتكاء على المكان –وهويته- بعد أن افلتت قصيدة النثر من طغيان التسلسل الزمني وبفترة وجيزة قياساً بعصر القصيدة ؛ إن قصيدة النثر العراقية مازالت تحترث أرض النص وتكتسب خبراتها من خلال محاكاة الواقع الأدبي العراقي ؛ وهي طموحة ومتفائلة لتصنع تجربة شعرية قد تغير من أحوال المجتمع ؛ لذا على الرغم من نعومة أظفارها اتجهت إلى التجريب كي تواكب بقية الفنون والآداب التي سبقتها في العراق.

إن التجريب اتجاه جديد في التقنية، يتجاوز به الأديب واقعه الفني المستهلك، لذا اعتمدت أو قامت التجريبية على توظيف البناءات اللغوية، واستغلال تقنيات الشعور واللاشعور، وانثيال الوعي واللاوعي، والأحلام والكوابيس، وخلخلة عنصري الزمان والمكان[٢٣].

ولا يختلف جنس الشعر عن غيره من اجناس الأدب في الافادة من عوامل الإبداع في التجريب التي أشار إليها حسن عليان بخصوص الرواية العربية، فإن من يستقرئ أفق التحولات في قصيدة النثر العراقية يجدها قد اعتمدت في التجريب تقنيات متعددة، أسرعت في أعطائها سمة التطور الطبيعي والتدريجي بأشكال فنية صاغتها رؤى الشاعر المتعددة، وأن هذا التطور لم يأتِ من فراغ وإنما جاء بفضل عوامل الإبداع والتجريب التي هذبته[٢٤].

أبعاد التجريب:

مما سبق يمكن أن نخلص إلى استكشاف أبعاد التجريب من خلال ما اعتمد من اطروحات فكرية فقد اعتمد التجريب على الطروحات الآتية:

١- التجريب يتجه نحو كتابة نص متعدد الأبعاد، متعدد اللغات والأصوات، متعدد مداخل القراءة، متعدد في اشتغاله على استراتيجية الأشكال.

٢- التجريب لا يفرق بين الواقع وبين الحلم، بين الواقع وأسطورة الواقع، بين الوقائع والتوقعات، لأنه يعي بذاته ككتابة عن الواقع، تستلهمه ولا تستنسخه، تُعيد تشكيل ملامحه ولا تسعى إلى بَثِّه كما هو.

٣- التجريب يَتَمَثَّلُ الواقع من خلال التمثلات الشعرية، رؤية الشاعر، بنزوعاتها ورؤاها الخاصة وأنماط وعيها بالعالم.

٤- التجريب يستميل علاقة الكتابة باللغة، أو اللغات، ولا يحفل باللغة المسكوكة فصيحة العبارات، ولا يحفل بأحادية اللغة.

٥- التجريب يكمن في مغامرة لكتابةِ نص مستعص وممتنع، ويحاول أن يستنجد بالحكاية أو المحكيات، ليصوغ عالماً حافلاً بمظاهر المجتمع وعلاقة الإنسان بمجتمعه[٢٥].

وذلك يجعل الاستنتاج مفاده، أن التجريب عملية فنية فكرية إبداعية خلاقة تحقق معرفة أرقى، متجددة غالباً ما تحمل صفات المغامرة الإنسانية وخصائصها، والقدرة على فض المجهول واستيعاب الجديد، استطالت وولدتْ نصوصاً فيها قيمة أدبية عالية، تتمثل بالخيال، واللغة المحبوكة، التي غايتها التعبير عن واقع اجتماعي وأخلاقي، تصنع من خلاله تجربة بناءة قد تغير من أحوال مجتمع معين.

وأنه ذو مقامية عالية، يتجاوز من الداخل قوانين النص ولا يخرقها، ويتسم بالمقصدية، للولوج إلى عالم جديد حداثوي يتعصرن مع استمرار الحياة، ولا يستطيع أن يخوض مضماره الهاوي أو المبتدئ ؛ أو المتشعرن، إلا من احكمته الخبرة وهذبته الموهبة الشعرية التي تمتد لسنين طويلة، وارتشف منابع الطبع منذ نعومة أظفاره بعيداً عن التصنع.

إن التجريب يتأطر ويضع قوانينه يوماً بعد الآخر، ويرتقي لينظم نفسه، محاولاً الخروج عن النموذج الثابت متجاوزاً الأعمال التقليدية، ويبحث عن سبل الانفتاح، وقد ينسلخ في بعض الأحيان عن كُلِّ موروث أدبي.

مفهوم الحداثة وعلاقتها بالتجريب:

لم تغفل المعجمات اللغوية عن تناول ماهية الحداثة حتى وإن كان ذلك بإيجاز، لإيصال المعنى المجازي للمتلقي وبأبسط العبارات، فقد جاء وصفها أو تعريفها في المعجم الوسيط: ((بسن الشباب، ويقال أخذ الأمر بحداثته، بأوله وابتدائه))[٢٦].

وجاء التعريف في معجمات المصطلحية الأدبية، وهو في تنامي واتساع بما يجعل هذا المفهوم أعم وأشمل وأكثر فاعلية بوصفه: ((جدَّة، وإتيان بالشيء الذي لم يؤتَ بمثله من قبل، ويتحرر من إسار المحاكاة، والنقل والاقتباس، واجترار القديم، وقد تتمثل الحداثة في الأسلوب، أو في المضمون، أو في الاثنين معاً، فيكون صاحبها مبدعاً، وخالق مذهب جديد مطبوع بسمته المميزة))[٢٧].

ومفهوم الحداثة قديم يتساير مع كُلِّ حركة تجديد وإبداع عبر الزمان، وهو مصطلح ناقل ويشير إلى الحقب الأدبية المتعاقبة وتحديثها عبر العصور، إذ يرتقي ويتعمق وتزداد حمولته المعرفية كُلّما ارتقى الفكر وإذا كان الارتقاء الدائم يتطلّب المغايرة فأنها يجب أن لا تنقطع عن الجذور، بل تستلهم منها كلّ ما يؤهلها للتمرد على مظاهر الجمود والتخلّف والانتظام في مسيرة الحداثة وبهذا الإدراك المعرفي يكمن جوهر الحداثة[٢٨] في: ((أن تجد الطريق لكي تكون مساهماً فاعلاً في حضارة هذا القرن، لذلك فأنت مطالب بالتمرد، ومطالب أن يكون في تمردك ما يستعيد بعض حيويته من جذورك))[٢٩]، إن المغايرة التي يولدها التمرد على المألوف تؤدي إلى إدراك حقيقية جوهرية مفادها أن الحداثة عبارة عن ((الاختلاف في الإتلاف))[٣٠] و((نزوع دائم للابتكار والتجديد،

وجوهر متواصل قابل للاستئناف والتواتر والاطراد، إن الحداثة بهذا المعنى تظل مصطلحاً شاملاً يضم تحت قبته الواسعة أغلب حركات التجديد في الأدب دون اشتراط التعبير عن موقف قيمي..))[٣١].

حاول الكثير من النقاد والدارسين والمفكرين أن يوفقوا بين متغيرات اليوم وثوابت الأمس حتى تصبح الحداثة بمثابة ((محاولة تركيب بين التراث والتجديد، والأصالة والمعاصرة، فهي استمرار للتجديد الذي بدأت طلائعه في الشعر العربي منذُ أوائل العصر العباسي، ويأتي تعريف أدونيس للحداثة في أن تقبل الحوار مع الآخر، وأن نفكر مجدداً في تراثنا، دون أن نتنازل عن أصالتنا، فالحداثة إذاً هي التغاير، وهي الخروج من النمطية، والرغبة الدائمة في خلق المغاير))[٣٢] لأن ((الحداثة لم تكن حكراً على زمان أو مكان معين، بل هي ظاهرة نجدها في أكثر من زمان ومكان حيثما توفرت الأرضية الفكرية- الاجتماعية- التاريخية للتحول أو الانتقال من مرحلة إلى أخرى، إذ يعكس التحول هذا مستوى من الوعي والحاجة إلى التغيير))[٣٣].

وقد راقَ لبعض النقاد أن ينظروا إلى الحداثة، ((وكأنّها انبعاث للرومانسية بصورةٍ متطرفة وغير عقلانية، ويرى آخرون استمرار وجود العناصر الرومانسية في الحداثة مثل الاهتمام بالوعي، وبالعلاقة بين الذات والموضوع وبالتجارب المكثفة..))[٣٤].

ومما لا ريب فيه أنّ الحرية في الحداثة شاملة ولا تقتصر على مجالٍ من دون آخر فهي ((لا تقتضي أو تتضمن حرية الفكر وحده، وإنما تقتضي بتضمن حرية الجسد أيضاً، إنها انفجار لمكبوت وتحرره)) [٣٥]، أن يفكر الإنسان حقّاً، تفكيراً حديثاً، ((وأن يكتب كتابة حديثة، أمران يعنيان أولياً أن يفكر في ما لم يفكر فيه حتى الآن، وأن يكتب ما لم يكتب حتى الآن، ذلك المكتوب الضخم المتواصل- دينّياً وثقافياً فرديّاً واجتماعياً، نفسيّاً وجسديّاً، وهذا يعني أن الحداثة انخراطُ في التاريخ، وأنها كتابة تضع هذا التاريخ موضوع تساؤل مستمر، وتضع الكتابة نفسها موضع تساؤل مستمر..))[٣٦].

تبقى الحداثة مثار اختلاف دائم سواء في تعريفها أم في نشأتها إذ هي ((مدرسة في الأدب والفن يختلف الدارسون في تحديد نشأتها، فبعضهم يعد سنة ١٨٣١م بدء قيامها، وبعضهم يعد بودلير ١٨٦٠م أول من دشن الحداثة في الشعر، والبعض الآخر يرى أنها

نشأت عام ١٩٠٥م وعلى العموم فأن الحداثة تعني السخط على التقاليد الأدبية القديمة والتبرم منها))[٣٧].

تبقى الحداثة تعاصر الفنون والأعمال الأدبية، مثل ما كانت عليه في كل العصور، فهي عامل رئيس ومهم في تطور الفنون وجعلها تساير الحياة اليومية ومذاقات الناس المتنوعة، وإن التجريب هو أحد نتاجاتها المتنوعة والكثيرة في التطور وارتقاء الفنون والآداب في الحياة.

الخاتمة

وفي نهاية المطاف وبعد هذه المسيرة مع (التجريب وقصيدة النثر العراقية) توصل البحث إلى بعض النتائج وكانت كلآتي:

- لم يختلف أصحاب المعجمات اللغوية والاصطلاحية في تعريف التجريب وإن استطالة الشروح تعطي قصداً واحداً.
- لم يحظَ مصطلح التجريب بدراسة وافية عند أصحاب المصطلحات لم نجده يحظى بعناية أصحاب المعجمات الاصطلاحية، كما وجدنا أن الاهتمام به في البحوث العلمية والأكاديمية، من القلة إلى درجة عدم كفايتها.
- إن التجريب عملية فنية فكرية إبداعية خلاقة تحقق معرفة أرقى، متجددة غالباً ما تحمل صفات المغامرة الإنسانية وخصائصها، والقدرة على فض المجهول واستيعاب الجديد، وجعل من قصيدة النثر العراقية شعلة إبداعية تساهم في خلق تجربة خلاقة تفيد المجتمع، وتتفاعل مع الحياة اليومية.
- يتسم التجريب بالمقصدية، للولوج إلى عالم جديد حداثوي يتعصرن مع استمرار الحياة، ولا يستطيع أن يخوض مضماره الهاوي أو المبتدئ ؛ أو المتشعرن، إلا من احكمته الخبرة وهذبته الموهبة الشعرية التي تمتد لسنين طويلة، وارتشف من منابع الطبع منذ نعومة أظفاره بعيداً عن التصنع.
- إن التجريب يتأطر ويضع قوانينه يوماً بعد الآخر، ويرتقي لينظم نفسه، محاولاً الخروج عن النموذج الثابت متجاوزاً الأعمال التقليدية، ويبحث عن سبل الانفتاح، وقد ينسلخ في بعض الأحيان عن كل موروث أدبي، كما تجلت عوامله في قصيدة النثر العراقية بعد عام ٢٠٠٣م.

- التجربة غنوصة واستقالة للعقل والبحث عن السهل المكرر في سبيل اكتساب منافع سواء كانت آنية أو مؤقتة.
- تبقى الحداثة تعاصر الفنون والأعمال الأدبية، مثل ما كانت عليه في كل العصور، فهي عامل رئيس ومهم في تطور الفنون وجعلها تساير الحياة اليومية ومذاقات الناس المتنوعة، وإن التجريب هو أحد نتاجاتها المتنوعة والكثيرة في التطور وارتقاء الفنون والآداب في الحياة.
- اتجهت قصيدة النثر منذ بدايات عام ٢٠٠٣م نحو عبور جنسها ونوعها وشكلها، واتخذت قوالب وأفكاراً فنية وإبداعية جديدة، منها قصائد على شكل قطع شعرية مقطعة بمثابة المونتاج الشعري لتمهيد إلى حوار درامي.
- تمثل التجريب في الارتداد نحو الماضي وتظمين قصيدة النثر شعراً عمودياً يجعلها تتناقض مع ما دعت إليه من تحررها من كل أشكال الإيقاع.
- حاولت بعض نماذج قصيدة النثر محاكاة شعر التفعيلة في طولها الذي يخرق قصر القصيدة وكذلك في تنولها الموضوعات الاجتماعية والسياسية في النقد والتحليل.

هوامش البحث

١- لسان العرب، ابن منظور، ج١: ٢٦٢.
٢ - القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ج١: ٤٥.
٣ - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب:٨٨.
٤ - ينظر: آليات التجريب وجمالياته، زهيرة بولفوس، مجلة ديالى العدد ٦٧، ٢٠١٥م: ١٩٨
٥ - ينظر: المعجم المسرحي، مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض: ١١٨
٦ - ينظر: المسرح التجريبي والسينوغرافيا، عبد الله حسن الغيث، مجلة العلوم والثقافة جامعة السودان العدد٢، المجلد ١٢، ٢٠١٢م:١٦٧.
٧ - ينظر: أصول التجريب في المسرح المعاصر النظرية والتطبيق، هناء عبد الفتاح، مجلة فصول للنقد الادبي المجلد ١٤، عدد١، ١٩٩٥م:٥٤.
٨ - ينظر: نظرية التجريب المسرحي، طارق العذاري، مجلة الموقف الثقافي دار الشؤون الثقافية، العدد٢١، ١٩٩٩م:١٢٦.

٩ - ينظر: غواية التجريب دراسة في التجريب الشعري عند جيل السبعينيات في العراق، مناف جلال الموسوي:٢١.
١٠ - مدخل لدراسة الطب التجريبي، كلود برنار: ٢١.
١١ - اليات التجريب وجمالياته، زهيرة بولفوس، مجلة ديالى العدد ٦٧، ٢٠١٥م: ١٩٥.
١٢ - ينظر: المصدر نفسه:١٩٥.
١٣ - ينظر: الأدب التجريبي، عز الدين المدني:٢٦.
١٤ - ينظر: اللغة في الأدب الحديث، الحداثة والتجريب، جاكوب كورك:١٣.
١٥- ينظر: مفهوم التجريب في الرواية، سهام ناصر، رشا أبو شنب، مجلة جامعة تشرين المجلد ٣٦، العدد ٥، ٢٠١٤م:٣٠٨- ٣٠٩.
١٦- ينظر: المصدر نفسه:٣٠٨- ٣٠٩.
١٧ - ينظر: غواية التجريب دراسة في التجريب الشعري عند جيل السبعينيات في العراق، مناف جلال الموسوي:١٧.
١٨ - ينظر: الشعر التونسي المعاصر بين التجريب والتشكيل، خالد الغريبي:١٣.
١٩ - المصدر نفسه:٢١.
٢٠ - زمن الشعر، أدونيس:٢٨٧.
٢١ -ينظر: إشكالية التنظير النقدي للخطاب الشعري الحداثي في الجزائر، زهيرة بولفوس، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة العدد٣٢، ديسمبر ٢٠٠٩م:١٦٤.
٢٢ - ينظر: التجريب في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، زهيرة بولفوس، اطروحة دكتوراه:١٦.
٢٣ - ينظر: نجيب محفوظ الرؤية والإرادة، عبد المحسن طه بدر:٧٥.
٢٤ - ينظر: تقنيات السرد وبنية الفكر العربي في الرواية العربية، حسن عليان:١٤.
٢٥- ينظر: التجريب الروائي وتشكيل خطاب روائي عربي جديد، محمد عز الدين التازي، ندوة الرواية العربية الدورة الخامسة، (القاهرة، ٢٠١٠م):٦.
٢٦- المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين:١٠٦.
٢٧- المعجم الأدبي، جبّور عبد النور:٩٢.
٢٨- ينظر: إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث، يحيى شايف ناشر، اطروحة دكتوراه:٥٤.
٢٩- ينابيع الرؤيا، جبرا إبراهيم جبرا: ١٤٠-١٤١.
٣٠- فاتحة لنهايات القرن، أدونيس:٣٢٦.
٣١ مدارات نقدية في اشكالية النقد والحداثة والابداع، فاضل ثامر: ١٨٠.

٣٢- الحداثة الشعرية، محمد عزّام: ٣٨ - ٣٩.
٣٣- نازك الملائكة (الكتاب الذهبي)، إعداد علي الطائي: ٦-٧.
٣٤- الحداثة، مالكم وجيمس: ٤٨.
٣٥- الشعرية العربية، أدونيس: ١١١.
٣٦- الشعرية العربية، أدونيس: ١١١.
٣٧- قراءات في الأدب والنقد، شجاع العاني:١٦٠.

قائمة المصادر والمراجع

- الأدب التجريبي، عز الدين المدني، دار الكتب، (الجزائر، د.ت).
- إشكالية التنظير النقدي للخطاب الشعري الحداثي في الجزائر، زهيرة بولفوس، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة العدد٣٢، ديسمبر ٢٠٠٩م.
- إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث، يحيى شايف ناشر، اطروحة دكتوراه مقدمة الى جامعة الموصل، كلية التربية، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٣م.
- أصول التجريب في المسرح المعاصر النظرية والتطبيق، هناء عبد الفتاح، مجلة فصول للنقد الادبي المجلد ١٤، عدد١، ١٩٩٥م.
- آليات التجريب وجمالياته، زهيرة بولفوس، مجلة ديالى العدد ٦٧، ٢٠١٥م
- التجريب الروائي وتشكيل خطاب روائي عربي جديد، محمد عز الدين التازي، ندوة الرواية العربية الدورة الخامسة، (القاهرة، ٢٠١٠م).
- التجريب في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، زهيرة بولفوس، اطروحة دكتوراه مقدمة إلى جامعة منتوري، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٩-٢٠١٠.
- تقنيات السرد وبنية الفكر العربي في الرواية العربية، حسن عليان، أزمنة للنشر والتوزيع، ط١، الأردن، ٢٠١٥م)..
- الحداثة، مالكم وجيمس، ترجمة: مؤيد فوزي حسن، دار المأمون، ط١، (بغداد، ١٩٨٧م) .
- الحداثة الشعرية، محمد عزّام، اتحاد الكتاب العرب، ط١، (دمشق، ١٩٩٥م).
- زمن الشعر، أدونيس، دار عودة، ط٣، (بيروت، ١٩٨٣م).
- الشعر التونسي المعاصر بين التجريب والتشكيل، خالد الغربي، طبع تحت إشراف كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، (تونس، ٢٠٠٥م).
- الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، ط١، (بيروت، ١٩٨٥م).
- غواية التجريب دراسة في التجريب الشعري عند جيل السبعينيات في العراق، مناف جلال الموسوي، الشؤون الثقافية العامة، ط١، (بغداد، ٢٠١٢م).

- فاتحة لنهايات القرن، أدونيس، دار العودة، ط١، (بيروت، ١٩٨٠م).
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ت، ٨١٧ه)، دار الكتب العلمية، ط١، (بيروت، د.ت).
- قراءات في الأدب والنقد، شجاع العاني، اتحاد الكتاب العرب، (دمشق، ١٩٩٩م).
- لسان العرب، ابن منظور الأفريقي (ت، ٧١١هـ)، آداب الحوزة، (قم، ١٤٠٥هـ).
- للغة في الأدب الحديث، الحداثة والتجريب، جاكوب كورك، ترجمة: اليون يوسف وعزيز عمانؤيل، دار المأمون، (بغداد،١٩٨٩م).
- مدارات نقدية في اشكالية النقد والحداثة والإبداع، فاضل ثامر، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٧م).
- مدخل لدراسة الطب التجريبي، كلود برنار، ترجمة: عمر الشارتي، دار بو سلامة للطباعة والنشر، (الجزائر، ١٩٨٢م).
- المسرح التجريبي والسينوغرافيا، عبد الله حسن الغيث، مجلة العلوم والثقافة جامعة السودان العدد٢، المجلد ١٢، ٢٠١٢م.
- المعجم الأدبي، جبّور عبد النور، دار العلم للملايين، ط١، (بيروت،١٩٧٩م).
- المعجم المسرحي، مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، ماري الياس، حنان قصاب، ناشرون، ط١، (بيروت، ١٩٩٧).
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، ط٢، (بيروت، ١٩٨٤م).
- المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، دار المعارف، ط١، (بيروت، ١٩٩٦م).
- مفهوم التجريب في الرواية، سهام ناصر، رشا أبو شنب، مجلة جامعة تشرين المجلد ٣٦، العدد ٥، ٢٠١٤م.
- نازك الملائكة (الكتاب الذهبي)، إعداد علي الطائي، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٥م).
- نجيب محفوظ الرؤية والإرادة، عبد المحسن طه بدر، دار التنوير للطباعة، ط٢، (بيروت، ١٩٨٥م).
- نظرية التجريب المسرحي، طارق العذاري، مجلة الموقف الثقافي دار الشؤون الثقافية، العدد٢١، ١٩٩٩م.
- ينابيع الرؤيا، جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات، ط١، (بيروت، ١٩٧٩م).